٦

# قال هذا رحمة من ربى

ما زلت أذكر يوماً فى أسوان وقفته عند السد العالى، بعد تحويل مياه النيل ، والعمل يسير فوق الأرض وتحت الماء . وفى الوجوه فرحة جادة . وفى النفوس إرادة واعية مؤمنة مستنيرة تعرف حساب الزمن ، وتسابقه إلى المستقبل ، وتعوض أعوام التخلف والضياع .

وعدت بعد الجولة ورؤية النيل الصديق ، وقد لان جبروته ، وقادته العقول والسواعد إلى المجرى الجديد، فائضاً بخير جديد . وأوجدت فيه بحيرة لم تكن موجودة من قبل . وجعلت من الباب الجنوبى لوطننا جبهة عمل، غيرت معالم الحياة الطبيعية والبشرية هناك ، وأوجدت بيئة حضارية ومناراً من منارات التعاون بين الشعوب والحكومات ، على أساس من الإخاء الإنسانى والسير نحو حياة أفضل ، لا تقوم على استغلال فرد لفرد أو شعب لشعب .

## ١ ــ قصة سد فى القرآن

وذكرت قصة سد جاءت فى القرآن الكريم فى خواتيم سورة الكهف [ ٨٣ ــ ٩٨ ] ولنقرأ معاً قوله تعالى :

« وَيَسْأَلُونَكَ عن ذِى القرنين . قُلْ : سَأَتْلُو عليكم منه ذِكْرًا * إِنَّا مكَّنَّا له فى الأَرضِ وَآتَيْنَاهُ من كل شىء

سَبَبًا * فأتبع سبباً * حتى إذا بلغ مَغْرِبَ الشمسِ وجدها تَغْرُبُ فى عين حَمِئَةٍ ووجد عندها قوماً ، قلنا : ياذا القرنين ، إمّا أنْ تُعَذِّبَ وإما أن تَتَّخِذَ فيهم حُسْناً * قال : أما مَنْ ظَلَمَ فسوف نُعَذِّبُهُ ثم يُرَدُّ إلى ربه فيعذِّبُهُ عذاباً نُكْرًا * وأما من آمن وعَمِلَ صَالِحاً فله جزاءً الحُسنى ، وسنقول له من أمرنا يُسرًا * ثم أتْبَعَ سبباً * حتى إذا بلغ مَطْلِعَ الشمسِ وجدها تَطْلُعُ على قومٍ لم نجعل لهم من دونها سِتْرًا * كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبْرًا * ثم أتْبَعَ سبباً * حتى إذا بلغ بين السَّدَّيْنِ وجد من دونِهِمَا قوماً لا يكادون يفقهون قَوْلاً * قالوا : ياذا القرنين إن يَأْجُوجَ وَمأْجُوج مفسدون فى الأرْضِ ، فهل نَجْعَلُ لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سَدًّا ؟ * قال : ما مَكَّنِّى فيه ربى خيرٌ ، فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أجعلْ بينكم وبينهم ردماً * آتُونِى زُبَرَ الحديد . حتى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْن ، قال : انْفُخُوا . حتى إذا جَعَلَهُ نَارًا ، قال : آتُونى أُفْرِغْ عليه

قِطْرًا * فما اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَروهُ ، وما اسْتَطَاعُوا له نَقْبًا * قال : هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى » .

## ٢ ـ منهج قرآنى

ذكرت هذه الآيات بتمامها لعمق دلالتها على المنهج الذى أراده لنا ربنا لنستفيد به من قصص القرآن . وهو منهج نجد معالمه الرئيسية فى قوله تعالى :

« وَكُلًّا نَقُصُّ عليك من أَنباءِ الرُّسُل ما نُثَبِّتُ به فُؤَادَكَ وجَاءَكَ فى هَذِهِ الحَقُّ ومَوعِظَةٌ وذِكْرَى للمؤمنين ». [ هود : ١٢٠ ] .

« لقد كان فى قَصَصِهِمْ عبرةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى ، ولكن تَصْدِيقَ الذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كُلِّ شىءٍ وهُدًى ورحمةً لِقَوْمٍ يؤمنون » [ يوسف : ١١١ ] .

فى القصص تفصيل هادف ، وإجمال هادف . والمحور الرئيسى لقصص القرآن هو « العبرة » : وهذه صالحة للتطبيق ، ودافعة إلى العمل الصالح دائماً ، وحافظة للنفس من الانحراف والهوى .

فى هذه القصة من سورة الكهف إجمال لنواح كثيرة وتركيز على نواح أخرى . .

ـ ما اسم ذى القرنين ؟ فى أى عصر عاش ؟ من أتباع أى نبى كان ؟ أين الموضع الذى شهد فيه غروب الشمس ؟ ومن القوم الذين تطلع عليهم الشمس دون ستر ؟ وأين المكان الذى عناه ربنا بقوله : « بين السدين » ؟ ومن يأجوج ومأجوج ؟ ومن القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا ؟

أسئلة لا نجد لها جواباً . وقد نجد من الباحثين عناية ببعضها . ولكنها لن تصل إلى مرتبة اليقين الذى لا يقبل نقضاً ، وإن دخل بعضها فى مجال التكلف الذى نهانا ربنا عنه .

هذا ، بينما هناك أماكن أخرى ، ذكرها ربنا بتحديد دقيق ، لا يمكن الاختلاف فيه ، مثل : البيت العتيق ، عرفات ، المشعر الحرام ، الصفا ، المروة ، مكة ، المدينة ، المسجد الأقصى ، . . وتتصل أكثر ما تتصل بالشعائر .

فإذا ما نظرنا إلى قصة ذى القرنين وجدنا تفصيلا لمراحل بناء السد : الحوار الذى دار بين القائد والمستضعفين ، المنهج الذى دعاهم إليه ، خطوات العمل حتى تم البناء ، واختبار البناء بعد إتمامه ، رد الأمر كله إلى الله تعالى ومنه نستمد القوة والعون .

فحيث التركيز فى القصص القرآنى نجد العبرة . وحيث تلقى الآيات الكريمة ضوءها ينبغى أن تنظر . بل إنك لتستطيع أن تتجه إلى العبرة من دراسة مقدمات القصة وخواتيمها ، وهذه تقودك إلى المعالم الرئيسية التى ينبغى أن تتجه إليها العناية .

وبهذا المنهج ، وعلى هذا الضوء ، نحاول السير فى قصة ذى القرنين :

## ٣ ـ العمل

لقد نزلت سورة الكهف بعد أن تحدى كفار قريش، رسول الله صلى الله عليه وسلم مستعينين فى هذا بأحبار اليهود .

قال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم . .؟ ( وهم أهل الكهف ) وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ ( وهو ذو القرنين ) وسلوه عن الروح ، ما هى ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم . .

وتأخر الوحى عن رسول الله عندما قال لهم: « أخبركم بما سألتم عنه غداً » ولم يستثن أى لم يرد المشيئة إلى الله تعالى . واشتد حزن الرسول وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم نزل الوحى الإلهى بعد خمسة عشر يوماً وفيه معاتبة الله لرسوله على حزنه [١]: « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ [٢] نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً » [الكهف : ٦] .

ثم يحدد هدف الرسالات فيقول: « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » [الكهف : ٧] .

فالعمل الصالح هو أساس التفاضل بين الناس ، وهو المجال الأساسى لخدمة المجتمع وإعلاء شأنه .

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ١٠ : ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

(٢) باخع : مهلك .

ثم يؤكد الإيمان بالجزاء : « وإنَّا لجَاعِلُونَ ما عليها صَعِيدًا جُرُزًا [١] » [ الكهف : ٨ ] . ومرد الناس بعد دنياهم إلى الله تعالى .

الاختبار الأساسى للإنسان هو أن يعمل « أيهم أحسن عملا » ، وليس الاختبار مجرد سؤالك عما تعلم من قصص الأولين .

من أجل ذلك جاءت القصص فى القرآن مؤكدة قيماً عملية إيجابية دافعة ، ولم تأت مجرد متعة ذهنية ، أو رداً على تحدى قريش واليهود .

وفى قصة ذى القرنين يبدو أمران واضحان من ذلك القائد : العدل والعمل . ولك أن تقول صيانة المجتمع داخلياً بالعدل ، وإطلاق طاقات العمل التى تحميه خارجياً من أعدائه ، وتوصل فيه قيماً جديدة من الإيجابية والتنظيم .

ولنعد إلى القصة . . .

## ٤ ـ العدل

فمع القوة التى توافرت لذى القرنين والقدرة والسرعة التى تتمثل جميعها فى قوله تعالى: « وآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا » كانت القوة عنده فى خدمة العدل .

فهو يصل إلى أمةمن الأمم، لا يعنينا اسمها ولا مكانها ، بقدر مايعنينا أنه بعد أن ملك أمرها ، يستمع إلى الخطاب الإلهى اختباراً وابتلاء .

ـ « قُلْنَا يَاذَا القَرْنَيْنِ إمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وإمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا » .

---

(١) جرزاً : لا نبات فيها .

فيذكر القائد منهجه فى الحكم :

ـ « أَمَّا من ظَلَمَ فسوفَ نُعَذِّبُهُ ثم يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُه عذاباً نُكْرا . وأما من آمن وعَمِلَ صالحاً فله جَزَاءً الحُسْنَى ، وسنقول له من أمرنا يُسرا » .

فهو يربط بين العمل والجزاء ، بين السبب والنتيجة ، على أساس من المنهج القرآنى الخالد ، الذى نقرؤه فى أكثر من آية من كتاب الله :

« أَمْ لم يُنَبَّأْ بما فِى صُحُفِ مُوسى * وإبراهيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وأَن ليسَ للإِنسانِ إلاَّ ما سَعَى * وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثم يُجْزَاهُ الجزاءَ الأَوْفَى * وأَنَّ إلى رَبِّكَ المنتهى » [ النجم : ٣٦ ـ ٤٢ ] .

« ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلا عليها ، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مرجِعُكُمْ فيُنَبِّئُكم بِمَا كُنْتُمْ فيه تَخْتَلِفُونَ » [ الأنعام : ١٦٤ ] .

فهو لا يؤاخذ إلا ظالماً يستحق عذاب الله تعالى . وهو يكرم المؤمن الذى يعمل صالحاً : فله عنده قول المعروف ويسر الأمر . وله عند الله جزاء الحسنى . الآية هنا تضع ميزان العدل الذى قامت به السموات والأرض : « والسَّماءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فى الميزان *

وأَقِيمُوا الوزْنَ بالقِسْطِ . ولا تُخْسِرُوا المِيزَانَ » [ الرحمن: ٧–٩]
والميزان أن يكون عقاب الفرد فى الدنيا مما يستوجب عقابه فى الآخرة ؛ وأن يكون إكرامه فى الدنيا من أجل ما يستوجب إكرامه عند الله إيماناً وعملا صالحاً.

هذا هو الميزان بين البر والإثم ، والذى يوضحه قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

١ ــ البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ( أى اضطرب ) وكرهت أن يطلع عليه الناس .

٢ ــ البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون (١) .

## ٥ ــ عودة إلى العمل

وتنقلنا الآيات الكريمة بعد هذا إلى مشهد رائع من مشاهد الإنتاج . .

يبلغ القائد مكاناً يسميه القرآن بين السدين . .

هذا خانق بين جبلين . والخانق يصل بين موطنين : يسكن أولهما طغاة مفسدون يسميهم القرآن «يأجوج ومأجوج » ، ويسكن الثانى شعب مستضعف يصفه القرآن بقوله « قوماً لا يكادون يفقهون قولا» وتدور القصة وأطرافها ثلاثة :

١ ــ الطغاة : ولا يظهرون أمامنا فى القصة ، ولا يشتركون فيها إلا من بعيد ، كخطر قائم يهدد سلامة الشعب الثانى .

٢ ــ المستضعفون الذين يتعرضون لإغارة الطغاة .

---

(١) السيوطى : الجامع الصغير ١ : ١٢٧ .

٣ – القائد بقوته المؤمنة التى وضعها فى خدمة العدل .

ويدور الحوار بين القائد والشعب :

«إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ . فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا »؟

العرض المقدم أن يجمع الشعب مالا ليقدمه إلى القائد ، ليتولى مسئولية السد : عليهم المال ، وعليه أن يوفر المواد والعمل .

ولكن القائد العادل لم يقبل هذا العرض . فليس مهمته مجرد إنشاء سد ، وإن كان يحول دون الطغيان ، ويحتمى وراءه المستضعفون . فرد عليهم :

«مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ، فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » .

ما مكنى فيه ربى خير مما تعرضونه على . . أريد منكم أن تشاركونى فى بناء السد . أيديكم فى يدى . واعدكم معى . وسنبنى السد معاً متعاونين . وستبنون نفوسكم وأنتم تبنون ، وتجدون حقيقتكم وسط الجهد والعرق . لا أريد أن تبقى لكم أيد لا تحسن إلا تقديم المال . . والشكوى . . وانتظار الغير أن يحمل عنها مسئوليتها . أريد منكم أن تعملوا .

وما أكرم قوله « فأعينونى » كأنه المحتاج إلى العون ، « بقوة » كأنه المحتاج إليها منهم ، مع أنهم المحتاجون إلى العون والقوة .

## ٦ – جمع المواد الأولية

هكذا نفخ فيهم القائد من روحه . أراهم أنهم قادرون على أن يعملوا . . وأن يعملوا بقوة . أعينونى : أمر تجد فيه الأدب الربانى الذى تحسه فى

قول الله تعالى داعياً إلى الإنفاق والبذل : ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ له أَضعافاً كثيرة واللهُ يَقْبِضُ ويَبْسُطُ. وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [ البقرة :٢٤٥ ].

وفى سرعة ينتقل القائد من التوجيه العام إلى تحديد خطوط العمل .

آتُونِى « زُبُرَ الحَدِيدِ[1] » .

اذهبوا وابحثوا عنها فى أرضكم . وجهوا ما بين أيديكم منها إلى الهدف الكبير ، إلى بناء السد الذى يحول بينكم وبين أعدائكم .

ولك أن تتصور كيف تحول المستضعفون إلى أرضهم، يثيرونها بحثاً عما فيها من معادن . لك أن تتصور الأيدى التى كانت لا تحسن إلا دفع الخرج وتقديم المال، تحاول أن تشترى به سلامتها، إلى أيدٍ خشنةٍ طهرها العمل .

وهذه الجباه التى كانت تذل أمام طغيان يأجوج ومأجوج ، انحنت على أرضها تخرج منها كنوزها من المعادن، وتستخرج فى الوقت نفسه ذاتها ، وتعثر على حقيقتها . . وتجلت فيها طاقات كبيرة كانت مقهورة تحت أطباق الذل . .

لقد أعانها القائد على أن تكتشف ذاتها عندما وجهها إلى العمل الدائب والاعتماد على النفس ، وعلى أساس من الإيمان والتعاون الواعى .

---

(١) قطع الحديد .

## ٧ – صهر وتنظيم وإرادة

ويتجمع الحديد ليسد بين الجبلين ويرتفع صوت القائد :

– « انفخوا » .

كلمة واحدة آمرة . لقد نفخ فيهم القائد من روحه فاندفعوا إلى العمل . . وها هم ينفخون الحديد الخامد فيلتهب كما التهبت نفوسهم .

ثم يرتفع صوته الآمر مرة أخرى :

« آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا »

نحاساً مذاباً . . فكأن هناك مجموعة أخرى كانت مختصة بأعداد النحاس المصهور ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه المجموعة الأولى مكلفة بإعداد الحديد ثم صهره ، حتى تجعله ناراً . وفى مرحلة معينة من مراحل العمل يصب القائد النحاس المصهور ، على الحديد الملتهب .

هنا يصبح السد قطعة واحدة ، كما يصبح الشعب سبيكة واحدة ، عن طريق العمل الدائب ، وارتفاع معنوياته ، وعمله المنظم من أجل هدف كبير .

مع تماسك السد تماسك الشعب : هذا بالصهر وهذا بالعمل .

## ٨ – اختبار السد

وبعد أن يفرغ القائد والشعب من الإنشاء ينتقل إلى مرحلة ختامية هى اختبار العمل بعد إتمامه . ويأمرهم القائد : حاولوا أن تتسلقوه . حاولوا أن تخترقوه . وتقرأ التسجيل الإلهى لهذه المحاولة :

« فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا »

وعندنا فى اللغة العربية قاعدة أن زيادة المبنى فى الكلمة يدل على

زيادة المعنى . ولا شك فى أن محاولة صعود السد أيسر من محاولة اختراقه .

ولهذا قال الله فى الأولى « فما اسطاعوا » وفى الثانية . فما استطاعوا : بزيادة حرف التاء .

## ٩ ــ هذا رحمة من ربى

بعد هذا كله يرتفع صوت القائد :

« هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى » .

إيمان يرد الأمر فيه كله إلى الله تعالى . دون انتظار ثناء منهم إلا على الله تعالى ، أن فتح أمامهم طريق العمل الجاد المشترك من أجل هدف كبير .

رحمة الله تمثلت فى تحول أمة من شعار « فهل نجعل لك خرجا » إلى أمة شعارها « فأعينونى بقوة » .

أمة لا تشترى سلامتها ولكن تصنع سلامتها .

أمه لا تشترى السد ولكن تصنع السد .

وقيادة تنفخ فى الأمة فاعلية وإيجابية ، تستطيع بها أن تتحول إلى أرضها تبحث فيها عن كنوزها ، وتكتشف ذاتها من خلال العمل .

أمة تتحول إلى جيش عمل منظم عالم بخبايا أرضه ، يقف أمام النار الملتهبة ، ويرفع السد معتمداً على ربه ، متجمعاً وراء قيادته منظماً صفه ، ومحدداً مراحل العمل وتوقيته الدقيق .

الاعتماد على النفس رحمة من ربى .

تنظيم العمل رحمة من ربى .

صهر الحديد والنحاس رحمة من ربى .

اختبار العمل بعد الانتهاء منه رحمة من ربى .

وهكذا تتمثل رحمة الله عملا إيجابياً ، ومشروعات تقيمها الإرادة المؤمنة الواعية ، والجموع المنظمة المنطلقة إلى حياة أفضل .